الفصل الثاني

الحضارة المصريَّة القديمة

سر نشأة الحضارة المصرية

إن العلمانيين من المؤرخين ينطلقون من عدة مُسَلَّمات يبنون عليها أفكارهم ومعتقداتهم ، وفحوى هذه المسلمات هو أن الكفر وعبادة قوى الطبيعة أو عبادة الطوطم هو الأصل ، وأن البشريَّة لم تعرف التوحيد الخالص إلا على يد موسى عند أحبار وكهنة اليهود ، وعلى يد عيسى عند قساوسة ورهبان المسيحيين ، وأنَّ الحضارة المصريَّة التي ولدت كاملة النمو إنما هي من صنع الطبيعة ، أو من صنع الملوك السحرة ، أو من صنع كائنات من كواكب أخرى أرقى عقلاً وعبقريَّة ومعرفة وحضارة عند علماء المصريات !!

ولم يهتم الباحثون بربط الرسالات السماويَّة بالوثائق والآثار التي تؤكِّد أن أنبياء الله عليهم السلام هم الذين بنوا هذه الحضارة بواسطة العلوم الإلهيَّة التي أمدَّهم الله تعالى بها ، لكي يعبدوا الله تعالى بتعمير أرضه ، كما أمدَّهم بالعقيدة والشريعة ليعبدوه تعالى وحده ويقيموا شرعه .

ويستنكر الكثيرون هذا القول ، ويتساءلون في دهشة :

هل أرسل الله تعالى إلى المصريين القدماء أنبياءً ورسلاً ؟! وهل لدى المصريين القدماء كتب سماوية منزَّلة من عند الله كالتوراة والإنجيل والقرآن؟!!

والحقيقة أن المصريين القدماء قد أكَّدوا أن الله تعالى أرسل فيهم أنبياء ورسلاً وأرسل معهم كتباً وصحفاً كما يذكرون أن كلَّ العلوم التي أنشئوا بها حضارتهم قد جاءتهم وحياً من السماء في صحف مقدَّسة .

يذكر د. أحمد بدوي في كتابه " تاريخ التربية والتعليم في مصر " أن علْم قدماء المصريين – في اعتقادهم – مَرْجعه إلى السماء ، جاء به رُسُل من حكماء الماضي، وهو مُدَّخر في الصحف يتناقله الناس جيلاً بعد جيل " .

ويقول د. عبد العزيز صالح : " رأى المتدينون – المصريون القدماء – في التَّزوُّد من مناهل العلم والعمل بهَدْيها نوعاً من التعبد في الدنيا ؛ فكان الداعي إلى دراسة هذه العلوم يعتبر نفسه داعياً إلى أقوال الرب . " [1]

ونسب كتاب الموتى (برديات الكتاب المقدس للحكيم آني) بناء الهرم الأكبر الذين أطلق عليه اسم (بيت الأماكن الخفية) إلى الإله تحوت إله المعرفة وكاتم الأسرار الإلهيَّة وحارس كلمات العدالة والحق . ناقل الكلمة والحرف وقياس الوقت والزمن ، ليكون معبداً وهيكلاً للخالق الأعظم وينقل منه رسالته إلى البشر ، وهو ما فسَّر للعلماء والباحثين " لغز الهرم الأكبر " فيما يختص بالغرض الذي بني من أجله ." [2]

والإله " تحوت " ما هو إلا نبي الله " إدريس " عليه السلام أو " هرمس " عند اليونان كما سنبين بالأدلة .

والسبب في خطأ كثير من علماء المصريات في تفسير نشأة الحضارة المصريَّة القديمة يرجع إلى الخطأ في الترجمة عن اللغة المصريَّة القديمة فلو ترجمت الوثائق ترجمة صحيحة عن الأصل الذي كتبت به لأكَّدت أن ما أتت به الحضارة المصريَّة وغيرها من الحضارات إنما هو من المعجزات التي أيَّد الله تعالى بها أنبياءه ورسله، ومما أوحى لهم به من علوم علَّموها الناس ليصلحوا بها دينهم الذي هو عصمة أمرهم ، ويصلحوا بها دنياهم التي فيها معاشهم ، ويصلحوا بها آخرتهم التي إليها معادهم .

ضاعت الحقيقة ، ولم يعد هنالك من يحكي عن عقائد المصريين القدماء وعبادتهم سوى بعض الرحَّالة والمؤرِّخين بكل ما فيها من زيف وجهل وخرافات .

---

(1) د. نديم السيار " قدماء المصريين أوَّل الموحدين " الطبعة الثانية ص ١٩٥ ، ١٩٦
(2) د. سيد كريم " لغز الحضارة " ص ١٩٣ الهيئة المصرية العامة للكتاب .

قال المؤرِّخ شمبليون : " وعندي أنه لا يعتدُّ بما قاله بعض أهل التاريخ من الأغراب الذين تطفَّلوا على محافل مصر فنقلوا من أخبار عباداتهم كلاماً اكتفوا في نقله بالظاهر دون الحقيقة لجهلهم بعادات المصريين ولغتهم ، ومبلغ علمهم بالديانات الصحيحة " .

كما ذكر مترجم كتاب " الحياة الاجتماعية " لبتري : " لقد تعرَّضت حياة الشعب المصري في الأزمان الغابرة لكثير من المسخ والتشويه على يد المؤرِّخين الأجانب وقد ظلَّت هذه الصورة المشوَّهة والروايات الكاذبة التي أذاعها الجُهَّال والمغْرضون يردِّدها الناس مئات السنين . "

وهكذا شاءت الأقدار ألا يبقى من عقائد مصر القديمة سوى كتب أولئك المؤرِّخين القدماء بكل ما فيها من خرافات وجهل وأكاذيب يقرأها الناس فيسخرون أو يشمئزُّون ، ولا يعرفون عن مصر القديمة وأهلها سوى أنهم كانوا كَفَرة مشركين عُبَّاد أوثان وأصنام !!! [1]

يقول د. سليم حسن : " إن من يعرف اللغة المصريَّة القديمة وصعوبة فهمها واحتمال اللفظ من المعاني يلتمس العذر لعلماء الآثار في اختلافهم وتعدد آرائهم وتباين مذاهبهم موضوعات كثيرة " [2]

وإن المرء ليعجب أن ينسب العلماء لامحوتب الألوهيَّة وينفوا عنه النبوَّة ، نعم إن ما عجز العلماء عن تفسيره في منجزات الحضارة المصريَّة القديمة إنما هو من ثمار العلوم المقدَّسة التي أوحى الله تعالى بها إلى رسله ليعلموها أقوامهم أو من معجزات السماء التي أيَّد الله تعالى بها أنبياءه ورسله ، والفرق بين معجزات الأنبياء التي أخبرنا الله تعالى بها ومعجزات الحضارة المصريَّة القديمة أن معجزات الأنبياء لا دليل عليها إلا إخبار القرآن الكريم بها ، بعكس معجزات الحضارة المصريَّة التي مازالت قائمة تتحدى أن يأتي أحد بمثلها أو حتى يفكَّ لغزها إنه تحدي من الله تعالى لكلِّ البشر كما تحداهم بأن يأتوا بسورة من القرآن .

---

(1) د. نديم السيار " قدماء المصريين أوَّل الموحدين " الطبعة الثانية ص ٤

(2) د. سليم حسن " مصر القديمة " ج١ ص (ب، ج) الهيئة المصرية العامة للكتاب .

وكما أرسل الله تعالى الأنبياء بشريعة تعلِّم الناس كيفية عبادة الله تعالى ، أرسل الأنبياء بالعلوم المقدسة التي تعلم الناس كيف يعمرون الأرض .

{ وَعَلَّمَ آدَمَ الأَسْمَاء كُلَّهَا } (البقرة : ٣١)

{ الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ عَلَّمَ الإنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ } (العلق : ٤، ٥)

فالله تعالى مصدر كل علم نافع عَرَفَه البشر فعلَّم آدم الأسماء كلها ، علَّمه أسماء الذوات ، وأفعالها ، مكبرها ومصغرها ، كما أشار إليه ابن عباس رضي الله عنهما . " (١)

لقد علَّم الله تعالى آدم أسماء عناصر الأرض وما بها من مخلوقات كما علَّمه كُنْهَ الأشياء وخصائصها ، وكيف يستخدمها وينتفع بها ، كما علَّم تعالى إدريس عليه السلام – نبي المصريين وأوَّل الأنبياء والرسل بعد آدم وشيث – فوق كل ذلك الكتابة بالقلم ، وحياكة الثياب ، وعلم النجوم ، والحساب وغيرها مما كان سبباً في النشأة الحضارة المصريَّة كاملة متطورة .

يقول الإمام القرطبي : " إدريس عليه السلام أول من خط بالقلم وأول من خاط الثياب ولبس المخيط ، وأول من نظر في علم النجوم والحساب وسيرها. وسُمِّي إدريس لكثرة درسه لكتاب الله تعالى. وأنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة " (٢)

وأما عن كون إدريس مصري ، ومرسل من الله إلى المصريين فدونك شذرات من أقوال العلماء في ذلك :

يقول القرماني في " إخبار العلماء بأخبار الحكماء " : " إدريس عليه السلام كان نبيّاً عظيماً وقد ولد بمصر " .

وفي دائرة معارف البستاني : " وأمَّا ترجمة إدريس على قول العرب فهي أنه كان نبيّاً عظيما ولد بمصر " .

ويقول الألوسي في تفسيره روح المعاني : " وكان إدريس قد ولد بمصر "

ويذكر ابن إياس في " بدائع الزهور " تحت عنوان " ذكر من كان بمصر من الحكماء في أوَّل الدهر " : " قال الكندي : كان بمصر من الحكماء إدريس وقد جمع بين النبوَّة والحكمة . " (٣)

---

(1) ابن كثير " البداية والنهاية " ج ١ ص ٧٨

(2) تفسير القرطبي ج ١١ ص ١١٧ .

(3) نقلاً عن د. نديم السيار " قدماء المصريين أوَّل الموحدين " ص ١٨٧ .

وحتى العلماء والمؤرخون الذين ذكروا أن إدريس ولد ونشأ في بابل ذكروا أنه هاجر إلى مصر ونشر فيها دين الله وعلومه المقدسة .

إذن كانت نشأة الحضارة المصريَّة القديمة نشأة دينيَّة ، وأن أوَّل علوم عرفها البشر علوم ربانيَّة ، وإنجازات المصريون القدماء الباهرة كانت ثمرة اتباعهم العلوم المقدَّسة التي جاء بها الأنبياء .

وهذا ما تؤكده الدراسة المتأنيَّة لتاريخ هذه الحضارات ، وآثارها الخالدة ، ونصوص الدين الإسلامي المعجزة .

المصريون القدماء والتوحيد

جمهور علماء المصريات والمؤرخين يجمعون على أن أهمَّ ما تميزت به الديانة المصريَّة القديمة هو تعدد الآلهة ، وهؤلاء الذين يقرُّون بتعدد الآلهة المعبودة لدى المصريين القدماء يقرُّون في ذات الوقت معرفة المصريين القدماء بالتوحيد الخالص فيقولون : " رغم أن هذه الآلهة تبعاً لبلادها كانت تختلف في الشكل والاسم وفي طريقة السلوك فمن المدهش أن نجد خارج هذه الاختلافات فكرة " الألوهيَّة " المجردة التي لا تتكر ممثَّلة في شعار على هيئة لواء معلق في طرفه ساق خشبية تغرس عند مداخل المعابد البدائيَّة .

وكلمة " نثر " أو " الألوهية " هي الاسم الذي كان يصف أي واحد من تلك الآلهة مهما كان اسمه ؛ كما استعملت لتصف كل سمة ربانيَّة . ومن الطبيعي أن تستعمل هذه الكلمة لتصف كل إله على حدة دون تكرار اسمه ، وسرعان ما أدَّى هذا الاستخدام إلى فكرة وجود قوَّة إلهيَّة مستقلَّة اشترك فيها كل إله .

كان الاعتقاد في " قوَّة إلهيَّة " غير شخصيَّة ولا نهائيَّة موجودة في كل إله على حدة (ولكنها عامة ومنتشرة في حيز واسع وراء أشكالها المرئية المختلفة) عنصراً أساسيا في الفكر الديني المصريِّ .

لهذا يمكن أن نقول إن التوحيد المصري موجود دائماً مع تعدد الآلهة الواضح في العبادات الماديَّة .

كثيراً ما يُذْكر الإله في أدب الحكمة دون أي صفات : " ليست إرادة الإنسان هي التي تحقق بل تدبير الإله " (بتاح حوتب) الدولة القديمة .

" يَعْرف الإله من يعمل من أجله " (مير يكارع) الأسرة الحادية عشرة .

" كل من يفعل هكذا سيمجد الإله اسمه " (الحكيم آني) الأسرة الثامنة عشرة.

" الإنسان طين وقش وصانعه هو الإله " (أمينيموبي) نهاية الدولة الحديثة .

"سعيد من يسير في طريق الرب " (بيتوسيريس) القرن الرابع قبل الميلاد. (١)

كيف يستقيم أن يعبد المصريون القدماء آلهة متعدِّدة في نفس الوقت الذي يعترفون فيه بوجود إله واحد أحد لا اسم له معروف ، ولا تمثال له منحوت ، ولا صورة له مرسومة ؛ لأنهم يعتقدون أن هذا الإله ليس كمثله شيء ، وأنه لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار ؟!!

هذا هو اللغز الذي دوَّخ العلماء والمؤرِّخين .

والحقيقة التي أكدتها البرديات القديمة أن المصريين موحِّدون ، نعم موحدون يؤمنون بالله الواحد الأحد – الذي نؤمن به – وبكل العقائد الإلهيِّة التي جاءت بها الكتب المقدسة بعد ذلك .

سعياً وراء البحث عن أصول الديانة المصريَّة وأسسها وفلسفتها نجد عباس محمود العقاد يؤكد في دراسته لمفهوم الألوهيَّة . في هذه الديانة أنه في هذه العهود السحيقة " وصل المصريون إلى التوحيد " وهو برأيه هذا ليس فريداً فيبدو أنه بذلك يسير على نفس درب بعض ذوي التخصص في الدراسات المصريَّة القديمة لأن "برستد " قد سبقه وأشار إلى نفس المعنى حيث بيَّن " .. وقوع بعض الناس في الخطأ فنسبوا إلى المصريين أنهم عبدوا الحيوانات ، ولكن الحقيقة أن ذلك لم يكن في أصل ديانتهم " ، وذهب معه " رودلف أنتس " إذ أكَّد أنه قد " .. عُرفت فكرة وجود الإله الأزلي منذ أوَّل بدء التاريخ المصري " وقد دعَّم هذا الرأي وعلا به أكثر د. أحمد بدوي بتأكيده : إن المصريين قد ".. عرفوا أن الله واحد لا شريك له " بل إنهم " قد نزَّهوا الخالق عن طبيعة الأشياء ". (٢)

---

(١) جورج بوزنر ، سيرج سونرون ، جان يويوت ، أ.أ.س إدواردز ، ف.ل. ليونيه ، جان دوريس " معجم الحضارة المصرية القديمة " ترجمة أمين سلامة ، مراجعة د. سيد توفيق . الهيئة المصرية العامة للكتاب الطبعة الثانية . ص ٥٣ ، ٥٤ .

(2) د. سيد القمني " عقيدة الخلود في مصر القديمة " المركز المصري لبحوث الحضارة ص ٩١

وليس فقط هؤلاء من أكدُّوا توحيد المصريين القدماء فهناك العديد من العلماء والباحثين الذين أكَّدوا هذه الحقيقة منهم العالم الفرنسي شمبليون مكتشف ومترجم نصوص حجر رشيد حيث يقول : " لقد استنتجنا مما هو منقوش على الآثار صحَّة ما رواه "جامبليك "وما ذكره غيره من المتأخرين من أن الأمَّة المصريَّة كانت أمَّة موحِّدة في عبادتها لله ، وأنهم لمَّا توغَّلوا في سبيل التوحيد وقطعوا آخر مرحلة علموا أن الروح أبديَّة واعتقدوا بصحَّة الحساب والعقاب " .

وفي عام ١٨٣٩ بعد وفاة " شمبليون " نشر أخوه " فيجاك " نقلاً عنه خلاصة ما كان قد توصَّل إليه بعد طول بحث ودراسة : "إن الديانة المصريَّة توحيد خالص"

ويذكر العالم البريطاني " والس بدج " : { إن أكثر المؤيِّدين لنظريَّة التوحيد في مصر القديمة هو " د. بروجش " الذي جمع عدداً هائلاً مدهشاً من الفقرات المصريَّة الأصليَّة ، ومن هذه الفقرات نختار ما يأتي :

" الإله واحد لا ثانيَ له "

" الإله باطن خفي" (الذي لا تدركه الأبصار)

" وهو خالق يعرف تكوينه ولا أحد يمكنه أن يدرك كنهته وماهيته ،ولا شبيه له"

" هو خالق الكون وكل ما فيه ، خالق السموات والأرض والأعماق (ما تحت الثرى) والمياه والجبال .. إلخ "

وهذا القول قال به العالم الفرنسي " دي روجيه " ، وعالم الآثار " دي لاروج " ، وعلماء الأثار : " ماريت " ، و" بيريت " و " ماسبيرو " .

لقد نشر " والس بدج " كتاباً فيه تلخيص لخلاصة ما توصل إليه هؤلاء العلماء وغيرهم جاء فيه " ومن الصفات المنسوبة إلى الله " God " في النصوص المصريَّة من كل العصور انتهي بروجش ، ودي روجيه ، وعلماء المصريَّات الكبار الآخرون إلى فكرة أن سكَّان وادي النيل من أبكر وأقدم العصور عرفوا وعبدوا إلهاً واحداً .. أزليّاً .. أبديّاً .. لا تدركه العقول ،ولا يمكن استكناه ماهيَّته" .

ونشر والس بدج كتاباً آخر أكد فيه ما سبق أن ذكره من تماثل توحيد قدماء المصريين وتوحيد اليهود والمسلمين يقول فيه : " إنه لا توجد صعوبة في إظهار أن

فكرة التوحيد التي وجدت في مصر منذ العصور المبكرة لا تختلف في ملامحها عن تلك التي نمت بين العبرانيين (اليهود) والعرب (المسلمين) " (١)

وقد قام د. وسيم السيسي بعقد مقارنة بين شريعة المصريين القدماء والشرائع السماوية الأخرى في مقال له بعنوان " النبي إدريس المثلث بالعظمة " جاء فيه :

" لم يترك الله أمَّة بلا رُسل : { وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ } [النحل :٣٦]

وقد ذكر منهم القرآن الكريم نبي الله إدريس :

{ وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِدْرِيسَ إِنَّهُ كَانَ صِدِّيقًا نَبِيًّا } [مريم : ٥٦]

وكان من ألقابه هرمس (٢) كما يذكر القفطى " إدريس النبي ﷺ ولد بمصر وسموه هرمس (٣)

وكان المصريون يلقِّبونه «عا.. عا.. عا.. ورَّ» أي مثلث العظمة . (٤)

وقد عُثِرَ على بعض الكتابات الهرمسيَّة، تقول عنها دائرة معارف الدين إنها أثرت في العقائد اليهوديَّة، واللاهوت المسيحي ، كما تذكر لنا دائرة المعارف البريطانيَّة أنَّ هذه الكتابات الهرمسيَّة دُرست جيداً بواسطة العرب وأثرت فيهم . (٥)

عرف القدماء البعث بعد الموت، نجد كلمة موت مصريَّة، منيَّة.. مصريَّة، نشرو " النشور" مصريَّة، أخرت " آخرة " مصريَّة، قر " المستقر " مصريَّة في القرآن {وَإِنَّ الآخِرَةَ هِيَ دَارُ الْقَرَارِ} [غافر : ٣٩]

نجد في كتاب «الخروج إلى النهار» المسمى خطأ «كتاب الموتى» في فصل إنكار الخطايا، تدخل نفس المتوفى إلى قاعة الحساب «كلمة مصريَّة» يسوقها أحد

---

(1) لمزيد من أقوال علماء المصريات حول توحيد القدماء المصريين راجع د. نديم السيار " قدماء المصريين أول الموحدين " الفصل الثاني " إشراق الحقيقة " .
(٢) دائرة المعارف البريطانية ج ٥ ص ٨٧٥ .
(٣) القفطي " إخبار العلماء بأخبار الحكماء " ص١
(٤) والاس بادج " آلهة المصريين " ٤٧٨.
(٥) دائرة المعارف البريطانية ج ٥ ص ٨٧٥ .

الملائكة، وفى القرآن الكريم {وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ } [ق :٢١] ، ثم يقول المتوفى: لم أرتكب إثماً، وفى القرآن: { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ } [الأعراف : ٣٣]

وفى برديَّة آنى يقول المتوفى: لم أرتكب الفحشاء (١) ، وفى القرآن { قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ } [الأعراف : ٣٣]

كما كان المصري القديم يقول: لم أقتلْ، لم أسرقْ، لم أسلبْ، لم أسرقْ بالإكراه، لم أرتكبْ الزنا، لم أشته زوجة قريب أو صديق، لم أرتكبْ الفاحشة في حرم الإله، وجاء في القرآن: { وَلا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلا تَقْرَبُوهَا } [البقرة : ١٨٧] ، وكان المصريُّ أو المصريَّة يقول في محاكمة الروح: لم أكن متنصتاً أو متجسساً، وفى القرآن الكريم: { وَلا تَجَسَّسُوا وَلا يَغْتَبْ بَعْضُكُمْ بَعْضًا } [الحجرات : ١٢] وكان يقول: لم أنطق بالأكاذيب، ولم أكن شاهد زور، ولم أغْتَبْ " الغيبة " أحداً ، ولم أكن نمَّاماً ، ولم أسخر من أحد، ولم أشتم، ولم أكن عالي الصوت، ولم أظلم.. بل عشت للعدل، وبالعدل عشت، والقرآن الكريم يقول :{ إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ وَإِيتَاءِ ذِي الْقُرْبَى وَيَنْهَى عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَالْبَغْيِ يَعِظُكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ } [النحل : ٩٠] كما كان المصري القديم يقول : لم أُلْحِق أذى بمخلوق، والقرآن: { وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا } [الأحزاب : ٥٨] إلى آخر هذا القانون الأخلاقي الرائع، والذي يقول عنه برستد " إنه أسمى بكثير من الوصايا العشر" (٢)

فإذا ذهبنا لسِفْر الأمثال الذي كتبه سليمان الحكيم بعد إمنوبى الحكيم المصري بآلاف السنين نجد التطابق العجيب الذي يؤكد أن المصدر الإلهي واحد منذ آلاف السنين، هوذا إمنوبى يقول: أمل أذنيك لتسمع أقوالي، وأعكف قلبك على فهمها، وسليمان الحكيم بعد آلاف السنين يقول: أمل أذنيك واسمع كلام الحكماء، ووجه قلبك لمعرفتها !

---

(١) والاس بدج " كتاب الموتى " ص ٢٠١.
(٢) برستد " فجر الضمير" ص ١٠.

ويقول أمنوبى: لا تتعب نفسك في طلب المزيد، مادمت حصلت على حاجتك، فالمال المسروق لا يمكث معك بل تصبح له أجنحة ويطير كإوزة إلى السماء، ويقول سليمان الحكيم: لا تتعب نفسك حتى تصير غنيّاً، فالمال يصنع لنفسه أجنحة كالنسر ويطير إلى السماء !

ويكتب لنا برستد عشرات الصفحات المقارنة بين أمنوبى وسفر الأمثال، وبين أناشيد أخناتون ومزامير داوود النبي .

لقد صبغت الحضارة المصريَّة القديمة كل ما ومن حولها ! إليك مثلاً تهامة مصرية معناها الأرض شديدة الحرارة، خيبر= خيَّالة من ألف جواد، يثرب= ملجأ الهاربين، هوازن= رافعو الأعلام، جبل حراء= جبل الأطلال، قريظة= حاملو الدروع، أقرأ هذا كله.. وهو قطرة في محيط، فأتذكر تنبؤات تحوت عن مستقبل مصر: آه يا مصر.. لن تلقى تصديقاً حتى من أبنائك، ستصبحين مهجورة.. موحشة، محتلة من الأجانب الذين سيتنكرون لتقاليدنا المقدَّسة (١) ، ولكن الكاهن نفرا بهو، ختم برديَّاته في وصف الثورة وعصر الاضمحلال، بظهور قائد منقذ من أبناء الصعيد، سيحرر البلاد ويعيد لها مجدها: سوف يعود الأمن للبلاد، وجيش مصر لمصر ويحمل سلاحه ضد أعداء الوطن الذين باعوه للأعداء " (٢)

إن المصريين القدماء عرفوا التوحيد الخالص منذ فجر التاريخ إن لم يكن على يد آدم عليه السلام فعلى الأقل على يد حفيده إدريس عليه السلام أو هرمس كما يسميه اليونان وصحفه المقدسة المنزَّلة من السماء .

يقول ديورانت في " قصة الحضارة : " كان من المألوف في الأزمان القديمة أن تُعْزى كتب القوانين إلى الوحي الإلهي ،وكانت قوانين مصر تعزى إلى تحوت " .

وتحوت هو نفسه هرمس عند اليونان .

يقول د. سليم حسن : " أطلق اليونان على تحوت اسم هرمس " (٣)

---

(١) عاطف عزت " دراسات وأبحاث في الحضارات القديمة " .
(٢) د. سيد كريم لغز الحضارة المصرية " ص ٣١٨ ، لمزيد من التفاصيل حول سيدنا إدريس راجع د. وسيم السيسي " النبي إدريس المثلث العظمة " موقع د. وسيم السيسي بتاريخ ٢/ ٤ / ٢٠١٣ .
(3) د. سليم حسن موسوعة " مصر القديمة " ج١ ص ١٨٦ مرجع سابق .

ويقول ول ديورانت " كان اليونان يعظمون تحوت ويسمونه هرمس المثلث العظمة " [١]

فتحوت هو هرمس ، وهرمس هو نبي الله إدريس .

يقول ابن تغر بردي : " إن هرمس الموصوف بالحكمة والذي تسميه العبرانيون خنوخ هو إدريس عليه السلام " [٢]

يقول النويري : "هرمس: نبي، وحكيم، وملك قيل: هو إدريس عليه السلام"[٣]

وتشير برديات هرمس إلى العلاقة بين ظهور عقيدة التوحيد وظهور جذور المعرفة في الحضارة المصريَّة القديمة والتي ارتبطت جميع عناصرها بالعقيدة ، تقول برديات هرمس " عندما آمن المخلوق برب السماء أنعم عليه بنعمة المعرفة التي حملها تحوت رسول الإله الذي ينقل رسالته إلى البشر "[٤]

ويقول ول ديورانت " كان معظم علماء مصر من الكهنة، ذلك لأنهم بعيدون عن صخب الحياة وضجيجها، يتمتعون بما في الهياكل من راحة وطمأنينة؛ فكانوا هم الذين وضعوا أسس العلوم المصريَّة ،وهم يقولون في أساطيرهم إنَّ العلوم قد اخترعها من ٨.٠٠٠ سنة قبل الميلاد تحوت إله الحكمة المصري في خلال حكمه على ظهر الأرض " [٥]

الإسلام يؤكد كلام المصريين القدماء

لقد جاء في حديث أبي ذر الغفاري الطويل في عدد الأنبياء عليهم السلام ذكر الصحف الثلاثين التي أوحى الله تعالى بها إلى إدريس نبي المصريين .

قال أبو ذر الغفاري : {... قلت: يا رسول الله، كم الرسل من ذلك ؟ قال: "ثلاثمائة وثلاثة عشر جم غفير كثير طيب". قلت: فمن كان أولهم ؟ قال: "آدم" قلت: أنبي مرسل ؟ قال: " نعم، خلقه الله " بيده، ونفخ فيه من روحه، سواه قبيلاً " .

---

(1) ول ديورانت " قصة الحضارة " مرجع سابق ج١ص ٣٢٦ .
(2) ابن تغر بردي " النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة " ص ٦٦ .
(3) النويري " نهاية الأرب في فنون الأدب " ص ٦٣٨ .
(4) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٧٠
(5) ول ديورانت " قصة الحضارة " مرجع سابق ج١ص ٣٢٥ .

ثم قال : "يا أبا ذر، أربعة سريانيون: آدم وشيث وخنوخ وهو إدريس، وهو أول من خط بقلم، ونوح، وأربعة من العرب: هود وشعيب وصالح ونبيك يا أبا ذر وأول أنبياء بني إسرائيل موسى وآخرهم عيسى، وأول الرسل آدم وآخرهم محمد" قال: قلت: يارسول الله، كم كتاب أنزله الله ؟ قال: "مائة كتاب وأربعة كتب، أنزل الله على شيث خمسين صحيفة، وعلى خنوخ ثلاثين صحيفة، ... } (١)

وذكر القرطبي في تفسيره : " إدريس عليه السلام أوَّل من خطَّ بالقلم وأوَّل من خاط الثياب ولبس المَخِيط، وأول من نظر في علم النجوم والحساب وسيرها. وسمي إدريس لكثرة درسه لكتاب الله تعالى. وأنزل الله تعالى عليه ثلاثين صحيفة كما في حديث أبي ذر . " (٢)

هذا ما قاله المفسِّرون في حق إدريس ، فماذا قال علماء المصريات عن تحوت؟

الحقيقة أن الكلام يكاد يتطابق مما يؤكد أنهما شخص واحد .

يقول علماء المصريات : " تحوت إله العلم والحكمة والأدب ، وكاتب الآلهة ومخترع اللغة الهيروغليفيَّة وواضع القوانين ومخترع علم الحساب والفلك " (٣)

وإذا كانت دعوة التوحيد قد بدأت في مصر واعتنقها المصريون منذ عهد إدريس عليه السلام . فإنها قد ظلت عقيدة راسخة نجد أصداءها تتردد بقوة على مر العصور والعقود .

إن كثيراً من الوثائق المصريَّة القديمة ككتاب الموتى ، ونشيد الشمس لا تملك أن تقول فيه إلا كما قال النجاشي عندما سمع القرآن " هذا والذي جاء به عيسى ليخرج من مشكاة واحدة " .

يقول رع (٤) عن نفسه : " إني أنا الذي خلقت السماء والأرض وأرسيت الجبال . أنا الذي خلقت الساعات ومن ثَمَّ جاءت الأيام إلى الوجود .

أنا الذي خلقت نار الحياة . " (١)

---

(1) ذكر الحديث ابن كثير في تفسيره ج ٢ ص ٤٧٢
(2) تفسير القرطبي ج ١١ ص ٤٧٢ .
(3) عبد القادر حمزة " على هامش التاريخ المصري القديم " مطابع الشعب ٤٧٧ .
(4) اسم " رع " عند المصريين القدماء معناه رب الأرباب أو إله الشمس .

ويقول " رع " عن نفسه أيضاً إنه : " الإله المقدَّس الذي جاء إلى الوجود بنفسه .. الإله الأزلي الذي وُجد في البدء والذي رفع السماء وسوَّى الأرض .. الإله الذي لا ينازع سلطانه منازع ذو القول الفصل . " (٢)

و" رع " هو الاسم الأشهر الذي عُرف به الإله الواحد الأحد الفرد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد ، وهو ما يقابل عندنا لفظ الجلالة " الله ".

و" رع " عند المصريين القدماء ليس اسم الله الأعظم ، فاسم الله الأعظم لا يعرفه أحد . جاء في كتاب الموتى وهو أقدم كتاب مقدَّس عرفه المصريون القدماء في عصور ما قبل الأسرات : " لا يعرف الإنسان اسم الخالق " .

وفي متون الأهرام : " إن الخالق لا يمكن معرفة اسمه لأنه فوق مدارك العقول "(٣)

إنه من المستحيل أن يصل المصريون القدماء إلى هذا التوحيد بعقولهم المجردة مهما بلغوا من الذكاء والعبقريَّة .

إن تاريخ المصريين القدماء تاريخ التوحيد ابتداءً من إدريس عليه السلام إلى الألف الأولى قبل الميلاد على لسان حكيم – وقيل أنه نبي – من النوبة أقصى صعيد مصر أو سودان مصر ألا وهو حكيم الحكماء لقمان الذي سمَّا الله تعالى سورة من سور القرآن الكريم باسمه جاء فيها .

{وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ أَنِ اشْكُرْ لِلَّهِ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّـهَ غَنِيٌّ حَمِيدٌ * وَإِذْ قَالَ لُقْمَانُ لابْنِهِ وَهُوَ يَعِظُهُ يَا بُنَيَّ لا تُشْرِكْ بِاللَّـهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ } [لقمان : ١٢ ، ١٣]

جاء في تفسير القرطبي " لقمان بن عنقاء بن سرون كان نوبيّاً من أهل أيلة " (٤) وقال سعيد ابن المسيب : " كان لقمان أسود من سودان مصر ذا مشافر، أعطاه الله تعالى الحكمة ومنعه النبوَّة؛ وعلى هذا جمهور أهل التأويل إنه كان وليًّا ولم يكن نبيّاً. وقال بنبوته عكرمة والشعبي؛ وعلى هذا تكون الحكمة النبوَّة. " (٥)

---

(1) نقلا عن إبكار السقاف " الدين في مصر القديمة ". العصور الجديدة ص ٤٥ .
(2) نفسه ص ٤٦ .
(3) د. نديم السيار " ليسوا آلهة ، ولكن ملائكة " ص ٣٢٠
(4) تفسير القرطبي لقوله تعالى : "وَلَقَدْ آتَيْنَا لُقْمَانَ الْحِكْمَةَ " [لقمان : ١٢]
(5) نفسه .

إذن لا شكَّ في أن المصريين القدماء كان لديهم كتب سماوية ، وأن الله سبحانه قد أنزلها وحياً على نبيهم إدريس في بداية الخليقة ، ووعظ بها لقمان الحكيم قبل الميلاد بألف عام .

كما نجد في الوثائق المصريَّة القديمة العديد من الشواهد على أن تلك الكتب المنزّلة كانت لها في نفوسهم قداسة هائلة ، وأنهم كانوا يلتزمون التزاماً كاملاً بكل ما جاء فيها ونجد هذا على سبيل المثال في نصائح ووصايا الحكيم " آني " إذ يقول: " إذا استشارك أحد فأشر عليه بما تقتضيه الكتب المنزَّلة "(١)

ويقول عالم المصريات الكبير د. سيد كريم " إن ما جاءت به الكتب المقدسة من عقيدة وشريعة وعبادة " وُجدَت مُفَصَّلة في " كتاب الموتى " الذي يعتبره كثير من المؤرخين وعلماء الأديان أوَّل دين سماوي عرفته البشريَّة خاصة وأن أقدم آثاره ترجع إلى ما قبل فجر الحضارة نفسها أي قبل الأسرات سنة ٤١٠٠ ق. م "(٢)

إذن وبناءً على ما تقدم فإنَّ المصريين القدماء لم يكونوا مشركين يعبدون آلهة متعدِّدة كما هو مشهور بل كانوا أوَّل شعوب الأرض يؤمن بالله الواحد الأحد وبشريعته وعلومه المقدسَّة وذلك التوحيد هو الذي بنوا به حضارة مصر وفي كل مرة حاولوا إقامة الدولة كانت الفكرة الأساسيَّة فيها توحيد العقيدة والإيمان بالإله الواحد وهذا ما يحل لنا اللغز الذي حيَّر المؤرخين وعلماء الآثار وهو ظهور الحضارة المصريَّة القديمة كاملة النمو بمعرفة متكاملة في مختلف العلوم الطبيعيَّة والرياضيَّة والفلكيَّة والطب والفنون والآداب والعمارة ، والأعجب من ذلك – أو ربما ما يُفسِّر ذلك – تكامل العقيدة " بتوحيد الإله " رع " رب الأرباب وخالق الكون ورمزوا لقدرته بقرص الشمس وعبَّروا عنه بالقوة الخفيَّة الكامنة التي تهب الحياة وتسيِّر الكون . "(٣)

نظام الحكم عند المصريين القدماء

إن دين الله تعالى ليس مجموعة من الشعائر التي تؤدى في بيوت الله ولا علاقة لها بحياة الناس ومعاشهم ، هذه فكرة قاصرة لدين الله فدين الله الذي شرع للناس شامل لكلِّ مناحي الحياة ، فكلُّ حياة المرء لابد أن تكون لله تعالى

---

(1) د. نديم السيار " قدماء المصريين أول الموحدين " ص ١٩٧ مرجع سابق .
(2) د. سيد كريم " لغز الحضارة " ص ٥٣ مرجع سابق .
(3) نفسه ص ٦٦

" قُلْ إِنَّ صَلاَتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ " [الأنعام : ١٦٢]

ونظام الحكم منصوص عليه في الشرائع السماويَّة ، وأمر الله تعالى الناس أن يحتكموا إليه .

يقول تعالى : {ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون} [المائدة:٤٤]

فمن كتم حُكْم الله الذي أنزله في كتابه وجعله حَكَماً بين عباده ، فأخفاه وحَكَم بغيره "فأولئك هم الكافرون " .

وقد كان نظام الحكم عند قدماء المصريين يسير وفق شرع الله ولا يخرج عنه يقول د. سليم حسن : " لم تكن الحكومة المصريَّة في نظر الشعب المصري نظاماً اخترعه الإنسان أو أنه جاء نتيجة تطور سياسي – كما زعم المؤرخون العلمانيون – بل كان هبة الله لشعبه أُسِّس عند خلق الدنيا " (١)

وكان الحاكم في مصر القديمة ليس مطلق اليد بل هو مُقيَّد بشريعة الله ، لا يخرج عليها ، وإلا خرج الناس عليه .

ودونك دستور الحكم في مصر : " إنَّ المصري القديم اعتقد إنَّ أوَّل من حكم على الأرض والعالم بأجمعه هو " رع " إله الشمس ، وقد وضع هذا الإله قانوناً يسمى " ماعت " ومعناه الصدق والعدل والحق والعدالة الاجتماعيَّة والحكم الصالح، ولما رَفَع " رع " نفسه إلى السماء حكم ابنه (٢) على الأرض ولقبه " بابن رع " (خليفته) وهو الملك ، وقد كان على كل ملك يَتَبوَّأ عرش مصر العظيمة منذ الأسرة الرابعة (أسرة بناء الأهرام) أن يسير في حكمه تبعاً لقانون " ماعت " فإذا ما حاد عنه قَيْد أُنْمُلَة فلشعبه ألا يعتبره ابناً " لرع " ولا يحكم البلاد .

لذلك نرى أن البلاد سارت تحكم بقانون " ماعت " مدة طويلة وهي تنعم بالرخاء طوال عهد الدولة القديمة حتى إذا ما انتصف حكم الأسرة السادسة أخذ الملوك يحيدون عن الحكم بقانون " ماعت " حتى انهارت البلاد وهوت إلى مزالق الذِّلة ولذا

---

(1) د. سليم حسن " تاريخ الضارة المصرية ، العصر الفرعوني " ج١ ص ٢٣٨ مرجع سابق

(2) " ابنه " هنا ليس بالمعنى الحقيقي إنما معناها خليفته مصداقاً لقوله تعالى : { وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلاَئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي الأَرْضِ خَلِيفَةً } (البقرة : ٣٠)

قامت في مصر ثورة اجتماعيَّة قلبت جميع الأوضاع ونادت بالإصلاح الشامل وتقويم فساد المجتمع من الانحطاط . " [١]

لكن ما هو قانون " ماعت " هذا الذي أمر الله تعالى به الإنسان أن يطبَّقه ، وعلى أساسه يوم القيامة سيحاسبه .

يقول د. سليم حسن : { كلمة " ماعت " تعني في متون كثيرة العدالة ولكنها فكرة تشترك في أسباب شرائع الكون ، كما يشترك فيها علم الأخلاق ، فهي العدالة بوصفها نظام إلهي للمجتمع ، ولكنها كذلك نظام إلهي للطبيعة كما وضعت عند بدء الخليقة .. وكلمة " ماعت " تحوي في طياتها معاني دقيقة خلقيَّة واجتماعيَّة فهي النظام الذي يسير على هديه الفرعون في حُكم شعبه كما كان يفعل " رع " ومن ثمَّ قَبِل الشعب المصري الحكم الملكي لا بوصفه نظام حكم أفضل من غيره بل لأنه من وضع الإله الخالق للعالم وعلى ذلك خضعوا له لأنه عادل ولم يكن للفرعون الحق في تغييره فإذا حاد عنه فإنه يعد خارجاً على نظام خالق الخلْق ، وقد استمرت ملوك مصر من أول مينا حتى نهاية الأسرة السادسة يسيرون حسب تعاليم " ماعت " ولما حادوا عن تعاليمها خرج عليهم الشعب ومن ثمَّ كانت أول ثورة اجتماعيَّة في تاريخ البشريَّة استمرَّت أكثر من قرن من الزمان إلى أن عاد قانون "ماعت" أي العدالة المطلقة على يد ملوك الدولة والوسطى " [٢]

وفي موضع آخر يقول د. سليم حسن عن قانون ماعت : " ذلك القانون الذي سنَّه " رع " أوَّل من حكم على الأرض وقوامه العدل والصدق والحق وتأدية الواجب على الوجه الأكمل دون تقصير أو تراخ وهو الذي سارت على سننه كل فراعنة مصر حتى أن من يحيد عن سبيله لا يكون جديراً بأن يدعى " ابن رع " وقد ارتضى المصريون هذا النظام عن طيب خاطر ، وقنعوا بالمَلَكيَّة نظام حكم لهم طوال مدَّة تاريخهم ، اللهم إلا فترات انحرف فيها الملوك عن " ماعت " فانفضَّ الشعب من حولهم وهبَّت في وجوههم الثورات تطالب بعدالة " ماعت " التي كانت غذاء الآلهة وقوام حياتها (أي شريعة الله ونظامه الذي بنى عليه الحياة والأحياء) كما كانت طعام الشعب وعماد حياته ، ولا غرابة إذن في أن نرى الشعب المصري كان يخضع للفراعنة

---

(1) محمد صابر " مصر تحت ظلال الفراعنة " مكتبة الأنجلو المصرية ص ١١١

(2) د. سليم حسن " تاريخ الحضارة المصرية ، العصر الفرعوني " ج١ ص ٢٣٩ مرجع سابق .

خضوعاً تاماً ، ويعتقد أن ما كانوا ينطقون به هو الصواب الذي لا مرية فيه ، لأنه من وحي " ماعت " التي سنَّها " رع " أوَّل من حكم العالم ثم ثار على نهجه الفراعنة من بعده . من أجل ذلك نرى في الصور الفرعونية أن أهم قربان وأثمن هدية يقدِّمها الفرعون للآلهة هي صورة " ماعت " التي تمثِّل في هيئة امرأة ترتدي على رأسها ريشة يرمز بها للعدالة " ماعت" كما أنه كان لزاماً على كل قاضٍ ممن يفصلون في قضايا الشعب أن يحلِّي صدره بصورة " ماعت " وعند النطق بالحكم كان يقبض على هذه الصورة بيده ويتوجَّه بها نحو من في جانبه الحق فكأنه يقول له " إن العدالة في جانبك " (١)

وكانت فترة فرعون حاكم مصر في عهد سيدنا موسى من تلك الفترات التي خرج فيها حاكم مصر على توحيد الله واتباع قانون " ماعت " ولقد عاقبه الله تعالى هو ومن أطاعوه بأن أغرقهم أجمعين ؛ ليكونوا عبرة لكل من تسوِّل لهم نفسه الخروج عن توحيد الله تعالى وعن قانون "ماعت " .

{ فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْماً فَاسِقِينَ * فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ * فَجَعَلْنَاهُمْ سَلَفاً وَمَثَلاً لِلآخِرِينَ } [الزخرف : ٥٤ – ٥٦]

الحياة الاجتماعية للمصريين القدماء

كان المصريون يؤلَّفون طبقتين : الطبقة الحاكمة وطبقة الشعب .والطبقة الحاكمة مكوَّنة من الحاكم وأهله ، وملئه وهم الكهنة والوزراء وكبار رجال الدولة وهم قلة في المجتمع .

أما طبقة الشعب فكانت تتكون من صغار موظفي الدولة والفلاحين والعمال والتُّجار والصُّناع وكان وضعهم التالي .

الفلاحون : كانوا يمثلون معظم السكان وهم مرتبطون بالأرض ويشتغلون بالفلاحة وبالخدمة في الأراضي المَلَكيَّة وضياع الأمراء وعظماء الدولة .

العمال وهم دون الفلاحين في العدد ويعملون في البناء والتشييد وصناعة الأدوات والحياكة وغيرها من الحرف التي لا يستغنى عنها مجتمع متحضر .

---

(١) د. سليم حسن " موسوعة مصر القديمة ، عصر رعمسيس الثاني " ج ٦صفحة ط ، ي .

أما بقية المهن كالتجار والصيادين والجنود النظاميين فنسبتهم قليلة إذا قيست بالفلاحين والعمال .

والذي يهمنا أن جميع أفراد الطبقة الشعبيَّة كانت سعيدة بعملها " فليس من شك في أنها تعبر عن المثل الأعلى في إدراك أولي الأمر معنى معاملة الأتباع بالحسنى والعدل . ويبدو في كثير من مناظر الحقول والمصانع المصورة على جدران المقابر أن ذلك كان عملاً ساراً بهيجاً ، كثيراً ما تصحبه النكات المتبادلة .. وكثيراً ما يقترن بالأنغام الموسيقية إذ أن أولي الأمر كانوا بطبيعتهم يميلون إلى المرح والسرور والتنعم بأكبر قسط من متع الحياة ، وكانوا يحبُّون أن يروا بيئتهم سارة بهيجة وليس هناك على كل حال مجال للقول بأن هؤلاء الأتباع كانوا يستغلون استغلالاً سيئا خالياً من الرحمة.

كما أنه لا مجال للقول كذلك بأن المصريين كانوا فريقين : أغنياء ينغمسون في متع الحياة ، وعامة الشعب الذين أضر بهم شظف العيش وقسوة الحياة ، فإنه لا أساس لما يذهب إليه الكثيرون من أن عهد الدولة القديمة كان عهد ظلم واستبداد لمصلحة الملك ومصلحة الدولة استعبد فيه آلاف من أفراد الشعب في بناء الأهرام والمباني الضخمة . ليس هناك دليل واحد يمكن الاعتماد عليه للأخذ بهذا الرأي . على أن هذه المباني الضخمة تدل على نقيض ذلك وما تدل عليه من حسن تنظيم وإدارة يمكن أن تشير إلى نقيض ذلك ، ويدعم ذلك ما تمثله سائر الفنون وصناعات ذلك العصر من حضارة راقية تكفي للتدليل على انتفاء أي وظلم واستعباد وقع على أصحاب هذه الحضارة " (١)

إن ما قدَّمته مصر للعالم في مختلف علوم التشريع وقوانين المجتمع وحقوق المرأة كذلك في علوم الري والزراعة ومختلف الحرف والصناعات وفنون الحياة ، كذلك في الرياضة وألعابها القديم منها والحديث وقد خرجت كلها من مصر ، لا تقل أي منها أهمية عما قدمته الحضارة المصرية من أسس وعراقة في علوم الطب والفلك والعمارة . (٢)

---

(1) د. نجيب ميخائيل إبراهيم " مصر " ص ١٩١ مؤسسة المطوعات الحديثة الطبعة الثالثة .
(2) د. سيد كريم " لغز الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٣٨٦

منجزات الحضارة المصرية القديمة سحر أم تكنولوجيا ؟

الحقيقة تكمن فيما وصفه أحد علماء متحف برلين الذي اهتم بدراسات برديات السحر الموجودة بالمتحف فتوَّج أبحاثه بقوله إذا حاولنا أن نزيح الستار عن حضارة مصر القديمة التي لم يصل إلينا منها إلا القليل إلى اليوم فما علينا إلا أن نترجم كلمة " سحر " إلى تكنولوجيا .

إن أيَّة حضارة في العالم إلى يومنا هذا كانت مقوِّمات قيامها تتركز على نوعيَّة القوى المحركة لها والطاقة التي تحكمها وتحركها كالنار والبخار والكهرباء والإشعاعات بأنواعها التي يمكن التحكم فيها سلكيّاً أو لا سلكيّاً والتي انتقلت إلى الأقمار الصناعيَّة ومختلف عناصر الطاقة المسيطرة عليها . وكان لكل منها دور فعال في انتقال الحضارة من مرحلة إلى مرحلة.

بدراسة برديات السحر المصري القديم من ذلك المنطق وفي إطار ذلك المنطق وجدناها ترمز وتعبر عن معادلات تكنولوجية عميقة ودقيقة تؤكد أن قدماء المصريين منذ بدء الحضارة قد توصلوا إلى السيطرة على الكثير من القوى الكونيَّة واستغلال طاقاتها في تحقيق الكثير من أغراضهم العلميَّة والعمليَّة . كالطاقة الشمسيَّة ومختلف أنواع الإشاعات والذبذبات ومجالاتها المستمدة من القوى الكونيَّة والسيطرة عليها بدء باستعمال البندول والإبر الصينيَّة والطب الروحاني والتي تفسر ما توصلوا إليه من إعجاز في الطب والجراحة وخاصة في عمليات جراحة المخ التي قاموا بها وكشفت عن تفاصيلها أكثر من مميا‌ء من المومياوات المحفوظة بالمتاحف العالميَّة والتي وصفها أحد اكبر الجراحين في مؤتمر جراحة لمخ الذي انعقد أخيراً بأمريكا بأنها لا تختلف عن آخر ما توصل إليه العلم الحديث في عمليات جراحة المخ أكد أن تلك العمليات لا يمكن إجراؤها بدون الاستعانة بأحدث الأجهزة الإلكترونيَّة ومختلف أنواع الأشعة الملازمة لها وخاصة الأشعة الملونة .

لقد لعب شحن الأجسام بالإشعاعات دوراً مهمّاً في التحنيط وكشف ناحية من نواحي أسراره الغامضة فقد توصلت الأبحاث التي قام بها الدكتور إبراهيم كريم الخبير في علم البندول بتعاونه مع المعاهد الفرنسية المتخصصة في اكتشاف علاقة التحنيط بالإشعاعات الكونيَّة ووجود إشعاعات صادرة من بعض المومياوات المحفوظة بالمتحف المصري وفي بعض المومياوات التي تم اكتشافها حديثاً في حفريات المقابر

والتي وجدناها لازالت تحتفظ بشحنات الأشعة الخضراء مما يثبت أن الفراعنة قد مارسوا عملية شحن الجثث بشحنات الأشعة الخضراء مما يثبت أن الفراعنة قد مارسوا عملية شحن الجثث بالأشعة الخضراء لحفظها من التحلل ولقتل البكتيريا التي تعمل على سرعة تحللها فشحن المومياوات بالإشعاعات كان لها دور أساسي في عملية التحنيط وكشف سراً هاماً من أسراره . (١)

حقيقة الحضارة المصريَّة القديمة

إن الوثائق المصرية تؤكد وتُلِحُّ في التأكيد على أن ما وصل إليه المصريون القدماء من علوم ومعارف إنما كان من وحي السماء " إن المصريين القدماء أنفسهم إذ يذكرون أن كل العلوم – الدينيَّة والدنيويَّة – قد جاءتهم وحياً من السماء عن طريق الرسل ويذكر د. أحمد البدوي " كان علم المصريين – في اعتقادهم – مرجعه إلى السماء جاءهم به رُسُل من حكماء الماضي " (٢)

يقول أرنولد توينبي فيلسوف المؤرخين في هذا المعنى " إن الله تعالى الواحد الحق قد اغتنم فرصة الصدام والانهيار اللذين أصابا التقاليد المحلية القديمة ففتح أذهان أصحابها واستغل هذه التجربة الأليمة فأنار هذه الأذهان التي تفتحت مؤقتاً وبصَّرها بمعرفة ذاته ، ومقاصده على وجه أكمل ، وأقرب إلى الحق مما يتسنى لهم معرفته من قبل " (٣)

ولا عجب إذن أن يكون شعب مصر أول المُوَحِّدين هم أنفسهم أصحاب أقدم تكنولوجيا عرفها التاريخ فهم الذين اخترعوا المحراث ، والمنجل ، والمطرقة ، الجاروف ، والمِكْنَسة ، المنخل ، الغربال ، والمِغْزَل ، والنَّوْل ، والبَكَرَة...

يقول د. وسيم السيسي عن بعض المنجزات العلمية التي توصَّل إليها المصريون القدماء : " لجأت مصر القديمة للكيمياء الحيوية لمعرفة الحَمْل من عدمه، بوضع بول المرأة المشتبه في حملها على القمح، والشعير، وقد قام بهذه التجربة أ.د. أحمد عمار، أستاذ النساء والتوليد بجامعة عين شمس، وأ.د. بول غليونجى، أستاذ الغدد الصماء

---

(1) د. سيد كريم " لغز الهرم الأكبر" نهضة مصر للطباعة والنشر ص ٢٠– ٢٣
(2) د. نديم السيار " ليسو آلهة ، ولكن ملائكة " ص ٤
(3) أرنولد توينبي " الحضارة في الميزان " ترجمة أمين محمود الشريف ص ١٩٣ دار إحياء الكتب العربية .

بنفس الجامعة، وثبتت صحتها، جدير بالذكر أن أوروبا ظلَّت تستخدم هذه الطريقة حتى القرن الثامن عشر .

كما لجأت مصر إلى طريقة عبقريَّة بالكيمياء الحيوية لمعرفة سبب عقم النساء بزيوت الثوم الطيارة، حين كانت تضع بعض فصوص الثوم مهبليّاً، ثم بعد ٨ ساعات يشم الطبيب رائحة التنفس، فإن كانت أنابيب فالوب سليمة، ظهرت رائحة الثوم، وإن كانت مسدودة، لا تظهر رائحة للثوم! هذه الطريقة العبقرية في الفحص، ذكرها أ.د . محمد فياض، في مؤتمر سنغافورة، فكان تعليق رئيس الجلسة: هذا يدل دلالة واضحة على دراية قدماء المصريين بدقائق الجسم البشرى، والتي اكتسبوها من علم التحنيط .

أما الجروح في مصر القديمة فكانت تخاط «SUTURED» في الست ساعات الأولى، أما بعد ذلك، فكانوا يضعون العسل الأبيض لقتل البكتيريا أو لباب خبز الشعير المتعفن، واكتشفنا أن هذا العفن، هو عفن فطر البنسلين، الذي اكتشفه ألكسندر فلمنج ١٩٢٨ !!

كما استخدمت مصر كبد الثور.. لعلاج العَشَى الليلي، والأنيميا، ذلك لأن كبد الثور يحتوى على فيتامين B ١٢، فيتامين A " (١)

ويقول د. وسيم السيسي في مقال آخر موجَّهاً كلامه لأجدادنا المصريين القدماء: " عثرنا في مكتبتك يا جدي على ٣٦ بردية في الرياضيات المصرية «٣٥٠٠ ق.م أرشيبال– تشيز – مانج بل» وعلى هذه القوانين الرياضيَّة– كان المعمار الشاهق الذي أصاب العالم بالذهول .

عرفت يا جدي أنكم أهديتم العالم السنة الشمسيَّة «٤٢٤١ ق.م» بعد أن كان الصيف يدخل في الشتاء بسبب التقويم القمري الذي كان العالم يسير عليه، فأنتم من عرَّف العالم بالشِّعْرَي اليمانية " سبدت " وأن السنة الشمسية ٣٦٥ يوماً + ٦ ساعات !

(١) من مقال د. وسيم السيسي " مصر القديمة والكيمياء الحيوية " موقع د. السيسي بتاريخ ٢٠١٣/٣/٣٠

عرفت يا جدي أنك عالجت البلهارسيا بالأشيمون، والصداع النصفي والاضطرابات النفسية بالكهرباء «سمك EEL أو الرعاد» كما أجريت جراحات المياه البيضاء في العين، والبتر في الأطراف، والتربنة في إصابات الرأس!

تركت لنا يا جدي علوماً لا حصر لها.. كسوة الهرم «سور صلاح الدين الآن»، برديات ..استعملناها كوقود للأفران.. إلا القليل الذي تم إنقاذه، ولكن كما يقول أمير الشعراء: " وما ذنب الورود إذا المزكوم لم يطعم شذاها " !

تركت لنا يا جدي ما نصبح به أغنى أغنياء العالم، ولكن حقد جون بول "إنجلترا " مع العم سام " أمريكا " ، مع ابن صهيون " إسرائيل " مع جرذان الصحراء كما كنت تسميهم، تحالفوا علينا، فأصبحنا نسمع من يقول عن حضارتك أنها عفنة، وآخر يقول نهدم آثارك، ولا يعرف هؤلاء الجهلة.. أنه ما من كلمة في حلوقهم عن الله أو الإيمان إلا وأنت صاحبها. " (١)

فضل الحضارة المصريَّة القديمة على البشريَّة

كانت الحضارة المصريَّة القديمة أوَّل حضارة حقيقيَّة زاوجت بين الجانبين : الروحي ، والمادي . أو بين الثقافة والمَدَنيَّة ، أو بين الدين والعلم والتكنولوجيا منذ فجر التاريخ ، وتشابكت جذورهما فلم ينفصل أحدهما عن الأخر ؛ لذا فقد أطلقوا على العلوم اسم العلوم المُقدَّسة ، ونسبوا كلَّ شيء للخالق عندما كانوا أوَّل من آمن بوجوده فارتبطت المعرفة وعلومها بالسماء فنبتت جذورها في المعابد وأصبحت ضمن مقدساتها ، لم تخضع لمبدأ التجارب والخضوع لسنَّة النشوء والتطوُّر بل خرجت إلى النور متكاملة يعززها البحث العلميُّ ونسبوها إلى "تحوت" (إدريس عليه السلام) .

يفسَّر " ساونيرون " في كتابه عن أسرار المعرفة المقدسَّة أن " تحوت " ما هو إلا رمز يعبِّر عن الكهنة المبجَّلين الذين نزلوا أرض مصر في عهد ما قبل الأسرات وأسَّسوا معبد أمون " عين شمس " بمعاهده ومرصده الذي أطلق عليه قدماء الإغريق " قلعة المعرفة المقدَّسة " .

---

(١) من مقال د. وسيم السيسي " سامحني يا جدي " موقع د. السيسي .

ومن تلك القلعة خرجت عناصر الحضارة المصريَّة بمقوِّماتها ومنجزاتها في مختلف علوم الحياة وفنونها وآدابها ، وأسرار العقيدة وتشريعاتها ونظمها .

فماذا قدَّم " تحوت " لمصر من وقود لشعلة حضارتها ، وماذا قدَّمت مصر للعالم عندما رفعت شعلة تلك الحضارة ؛ ليصل ضوءها إلى مختلف أمم العالم القديم ويستمر العطاء إلى عصرنا الحديث .

في مجال الثقافة : أنزل " تحوت " (سيدنا إدريس) الحرف والكلمة والنطق وأسماء الأشياء جميعها وعلَّم الإنسان الكتابة والقراءة ليقرأ تعاليم الآلهة وينعم بالحكمة والمعرفة (كتاب الموتى) .

فكانت الكتابة الهيروغليفية (النقش المقدَّس) التي دوَّنوا بها كتابهم المقدس ثم مختلف الخطوط الهيراطيقية والديموطيقية التي دوَّنوا بها آدابهم وفنونهم ومختلف علوم الحياة .

وبنزول الكتابة ابتكر المصري القديم الورق ذلك الابتكار الحضاري الفذ قوام الحضارات جميعها ، ومازالت تنعم به الإنسانية إلى الآن . صنعوه من البردي (بابي أور) هو الاسم الذي احتفظ به العالم الحديث وأطلقه على الورق في جميع اللغات .

ومع اختراع الورق اخترع المصري القديم القلم الذي صنعه من غاب النيل والحبر من نبات النيلة والفرشاة من الريش لرسم الخطوط الزخرفيَّة والحِبْر الأحمر والألوان وانتقلت كل منها لتترك بصمات مصر على جميع الحضارات وامتدادها .

وقرأ وسجل ودوَّن .. أوَّل من كتب التاريخ كتبه على الورق والألواح الإرتواز والفخار والأحجار الصلبة لإيمانه بحق الأجيال القادمة في حمل رسالة الثقافة .

وأعظم تجربة في نشر الثقافة ومحو الأميَّة في الدولة المصريَّة القديمة رسالة الإعجاز التي سجَّلها التاريخ لإخناتون عندما نادى : " أوَّل أركان الإيمان بالله هو العلم ، والجهل كفر " وهي الرسالة التي تمكن بواسطتها من محو الأُمِّيَّة ولأوَّل مرة في تاريخ البشريَّة يفرح الشعب بأكمله خلال عام واحد والتي حدد فيها العقوبات التي أمر بها الإله لمن يقصَّر في تعليم أولاده والتي وصلت إلى حد مصادرة أملاك الأب وقيام الدولة بصرفها على التعليم .

اشتهرت مصر بجامعاتها العلميَّة التي تعتبر من أقدم عصور حضارتها وأقدم جامعة فوق أرض مصر جامعة " أون " وقد ازدهرت جامعة " أون " القديمة بمختلف علوم اللاهوت والفلك والطب والهندسة والرياضيات والزراعة والفنون والآداب في وقت واحد وفيها نشا أول مذهب ديني لتفسير نشأة الوجود والتوحيد ومنها تخَّرج ايمحوتب واخناتون وانتسب إليها أكثر الأنبياء والفلاسفة والعلماء الذي وضعوا أسس الحضارة وأنظمة المجتمع للعالم أجمع .

ومنها خرج التقويم الشمسي المربع الذي قسَّم السنة إلى ٣٦٥ يوماً وربع ، كما نسب إليها معجزات العلوم الرياضية الهندسية وعلوم ما وراء الطبيعة التي بنوا فيها الأهرام والتي وقفت تتحدى العصر الالكتروني الحديث الذي مازال يقف حائراً وعاجزاً عن تفسير ألغازها أو حل رموز أسرارها .

ومن معبد " أون " خرجت بعثات الكهنة ابتداء من الأسرة الأولى لنشر عقيدة التوحيد في جميع أنحاء الوادي ، وإقامة المعابد ، والمعاهد العلميَّة التابعة لها لنشر العلم والمعرفة .

وقد استمر معهد " أون " يؤدي رسالته العلميَّة والحضاريَّة تلك الفترة التي استمرَّت ما يقرب من ثمانية آلاف عام حتى بداية الغزو الفارسي عندما دخل " قمبيز " مصر عام ٥٢٥ ق.م فحرق معبد " أون " وهدم معاهده ومرصده وحرق وثائقه وأمر بتحطيم بوابات الشمس وجميع مسلاَّت المدينة .

وآخر جامعة في تاريخ الحضارة المصريَّة جامعة الإسكندرية ومكتبتها المشهورة والتي بنيت ٢٩٦ ق.م في عهد بطليموس ولعبت دوراً كبيراً في نقل الحضارة المصريَّة وعلومها إلى الإغريق والرومان فكانت وسيلة الاتصال المباشر بين مصر وأوربا خصوصاً أن التعليم بها كان باللغتين المصرية واليونانية . (١)

لماذا اندثرت علوم الحضارة المصريَّة القديمة ؟

الحقيقة أن مكتبة الإسكندرية التي أنشأها بطليموس عام ٢٩٦ ق.م وكانت همزة الوصل بين المعابد الفرعونية وخزائن أسرارها وعلمائها وانفتاح علوم المصريين على

(١) د.سيد كريم " لغز الحضارة المصريَّة " مرجع سابق ص ٣٧٩ – ٣٨٢ بتصرُّف .

العالم الخارجي ، كانت تحتوى على أكثر من نصف مليون لفافة وبرديَّة وموسوعة في مختلف العلوم ولفنون والآداب والعقيدة ، وقد تخرج فيها عدد من علماء الإغريق والرومان ممن حملوا شعلة المعرفة إلى بلادهم كما أسهمت جامعة الإسكندريَّة في قيام كل من جامعات الإغريق والرومان وتزويدها بالمخطوطات والمؤلفات والعلماء .

وقد احترقت مكتبة الإسكندريَّة عام ٤٧ ق.م في الحرب بين يوليوس قيصر وبوبيوس في حريق الأسطول في ميناء الإسكندرية التي كانت المكتبة تطل عليه ومن بين المخطوطات التي كانت تحتفظ بها مكتبة الإسكندرية والتي يعتبرها المؤرخون اختفاءها أكبر خسارة في أسرار علوم المعرفة وتاريخ الحضارة موسوعة تحوت (الذي يطلق عليه الإغريق موسوعة هرمس) وكانت سجِّلاً ضخماً يتكون من ٤٢ جزءاً تحتوي على أسرار جميع العلوم والمعارف في مختلف نواحي الحياة وعلوم ما وراء الطبيعة وأسرار الوجود . باختفائها اختفت أسرار مقوِّمات الحضارة المصرية وأسرار ما وصلت إليه من قمة في المعرفة . لقد كان كل جزء من أجزائها الاثنين والأربعين موسوعة كاملة سواء في الطب أو الصيدلة أو الهندسة أو العلوم ، وما وراء الطبيعة أو الفلك والطبيعيات بجانب جميع فنون الحياة من موسيقى ورقص وعادات وتقاليد وتحتفظ متاحف العالم ومعاهد آثاره بعدد لا يزيد على أصابع اليد من برديات أجزاء هذه الموسوعة التي حيرت علماء العصر الحديث بما وصلت إلى من مستوى علمي خلاّق .

والخسارة الثانية كانت موسوعة أخرى لا تقل أهمية عن موسوعة " تحوت " وهي موسوعة وثائق تاريخ مصر – من بدء الخليقة إلى نهاية عهد الأسرات التي وضعها الكاهن والمؤرخ المصري مانيتون ، وقد كشف ما أمكن جمعه من بقايا عن طريق افريكانوس وسنشللوس ومقارنتها بما سجله بقية مؤرخي تاريخ مصر من الإغريق والأجانب فداحة الأخطاء التي تردوا فيها سواء من ناحية تحديد التاريخ الزمني أو السياسي أو تتابع الأسرات . ([1])

***

([1]) د. سيد كريم لغز " الحضارة المصرية " مرجع سابق ص ٣٩٦ .